المبحث الاول

المجتمع في مصر وبلاد الرافدين، نظام الحكم، الاسرة، المرأة، التشريع الاجتماعي والعدالة الاجتماعية

إنّ عنوان هذا الفصل وهو المجتمع (Society) في مصر وبلاد الرافدين قديماً يعني مرحلة متطورة في مجال التنظيم الإنساني، سبقتها مراحل أقل تطوراً. فقد تقدمتها مراحل أخرى بدائية حيث توالت على النوع الإنساني العديد من الحقب التي مثل بواكيرها اندماجه مع الطبيعة ثم انفصاله عنها على نحو لاهوتي كما في قصة الخليقة التي وردت في الفكر الديني، أو قصة التنازع والبقاء للأصلح كما جاءت في التفسير الداروينى. وبصرف النظر عن الخلاف بين هذين الوصفين لظهور النوع الإنساني فإنّ المحصلة تكاد تكون واحدة هي، إنّ الإنسان مرّ بمرحلة اندماج وخضوع لوسطه الطبيعي تلتها مرحلة انفصال وتمرد استطاع الإنسان أن يكون فيها سيد مصيره وأن يقرر لنفسه ما يراه مناسباً، متحملاً تبعات قراره إيجاباً أو سلباً[1].

لذا فإنّ من أخطر اختراعات النوع الإنساني هو المجتمع؛ لإنّه جعل من هذا الانفعال حقيقة مما دفع إلى النظر إلى عملية الانفصال وكإنّها نوع من الاغتراب (Alienation). وبذلك يصدق القول على الإنسان بإنّه مخلوق متمرد. هذا التمرد كان وراء تمسك النوع الإنساني بالمجتمع. وبدت مجتمع الإنسان في جذر سلوكه بين تمرده على الطبيعة لتحقيق ذاته وتفرده عن عالم الحيوان الذي يرتبط به عضوياً وبين توافقه مع المجتمع الذي يتصل به اجتماعياً.

هذه الإشكالية (انفصال عن الطبيعة واتصال بالمجتمع) هي التي أشرت بداية الجهد الإنساني لتحسين مكانة الإنسان الجديدة عن طريق محاولات مبكرة لمراكمة

---

[1] Cahnman, W.& A. Boskoff, Sociology & History: Reunion Approachment, pp. 1-7

المعرفة الإنسانية (أدوات+ تفكير) والتي نتج عنها حضارات ما زالت نتاجات محترمة، حتى بالمقاييس الحضارية الخاصة بالقرن العشرين التي تتميز بتكنولوجيتها المتطورة. «بدأ سكان الشرق الادنى يبنون حضارتهم منذ 4000 سنة قبل الميلاد، وخلال الالف سنة التالية، من 4000-3000 قبل الميلاد، تقدموا في بناء الحضارة العظيمة، وبدأوا العصر التاريخي أو العصر الذي كتب الإنسان لأول مرة مستنداته. تلك المستندات التي تقص علينا في كلمات مكتوبة شيئاً عن حياة الإنسان وما مر عليه من أحداث »[1]. ومن الطبيعي قبل تعرف المجتمع في بلاد الرافدين القديم لابد من توضيح الخلفية الجغرافية- التاريخية للعراق في حضارته القديمة. إنّ أساس الحضارة البابلية يكمن في شدة الخصب في أرضها متى توافر لها الماء بالقدر المناسب، فإذا تجاوزت كمية الماء القدر اللازم صارت الارض مستنقعاً طافحاً وإذا قلّت صارت صحراء قاحلة. ولايزال في بابل إلى الان مناطق صحراوية وسط الإقليم الزراعي المهيئ للري. ومن العسير علينا أن نتخيل القيود التي كان يخضع لها مهندس البناء في عمله إذا عرفنا إنّ مسقطاً من الحجر في أحد الابواب كان يعدّ هبة كبيرة من أحد الملوك إلى الإلهة وإنّه كان يستنقذ مرة بعد مرة كلما مر البناء ويعاد استعماله ويعاد إهداؤه. وكانت التجارة قائمة في ما وراء دجلة شرقاً تخترق سفوح التلال إلى إحدى المناطق الغربية المنتجة للأخشاب ثم إلى ما وراءها ثم إلى بلاد أحرقتها الشمس المتوهجة تنتج التوابل والعقاقير وكانت هناك صلة ببلاد أخرى تنتج التوابل في الجنوب وبشواطئ البحر الاحمر غرباً للحصول على المرجان والنحاس والحجارة الصلبة. أما ما كانت تصدره بابل في مقابل ما تستورده من السلع فإنّه الفائض الذي لا ينفذ من الاغذية والحبوب والتمر وقدر كبير من الصوف الجيد الذي ترجع جودته إلى إنّ غذاء الماشية التي يؤخذ منها كان أفضل من غذاء ماشية الصحراء- وأحمال كبيرة من المنسوجات الصوفية والملابس البابلية وغير ذلك من المصنوعات التي زادت مقاديرها بمرور الزمن. ومن فضل القول إنّها أصبحت مرزاً للتبادل التجاري، كإنّها إحدى المدن الصناعية الكبرى في القرن العشرين التي تتجمع فيها المنتجات العالمية عند تجار الجملة

---

[1] برستد، ص 60

وعن طريقهم توزع إلى تجار التجزئة في البلاد النائية بالاستعانة بالمكاتبات المنتظمة والمكاتبات الفرعية. وقد استخدمت الجمال والخيل الا في عمر متأخر. وقد جلب الجمل من بلاد العرب موطنه الاصلي[1].

نظام الحكم والاسرة والمرأة والتشريع الاجتماعي والعدالة الاجتماعية في بلاد وادي الرافدين

إنّ الطبيعة الجغرافية-الإنتاجية للعراق القديم المتمثل في مدينة بابل ومدن الحضارات العراقية القديمة في الشمال والجنوب، شكلت الوسط الإنتاجي (زراعي- تجاري- حرفي) الذي بني عليه المجتمع في العراق القديم. وليس من المستغرب- وقد بلغت الصناعة والتجارة مركزاً ممتازاً في حياة بابل الاقتصادية- أن يبلغ نظامها الاجتماعي مكانةً تدعو إلى حيرة عالمنا الحديث نخص بالذكر منها الاعتراف بحق الإنسان في الصناعة والمهارة الفنية وما بلغه من كسب للرجل والانثى على السواء. ولم تكن مكانة المرأة المتزوجة رفيعة فقط (لإنّ مشاركتها للرجل كانت موضع تقدير) وإنّ حريتها عظيمة فحسب، بل كان للنساء غير المتزوجات مكانة خاصة أيضاً في عالم الصناعة معترف بها في الجمعيات التعاونية الكبيرة ويقرها الدين وتحوطها مواثيق عن المرأة بالتزام العزوبة والعناية التامة بالعمل. ولم يكن أعضاء هذه المؤسسات مثل راهبات القرون الوسطى بل كان لهن كل الحرية في عملهن ووقتهن ويزاولن من العمل ما يحببن في حدود عضويتهن وبقدر ماحفظن عهودهن وقمن بواجباتهن. ولم تكن هناك فروق اجتماعية الا بين الرقيق والاحرار وبين من لا يملكون شيئاً من العقار، وهم العمال في الغالب، وأصحاب الاملاك وهذه الطبقة الاخيرة تشمل الموظفين العاملين. فإنّ أصحاب الوظائف العامة، هنا كما في أوربا في العصور الوسطى، لا يمنحون أجوراً ولكنّهم يمنحون أرضاً تكفي الموظف وتقيم أوده وعند أعباء وظيفته.

ونظراً إلى إنّ الامتيازات تستدعي وجود مسؤوليات فإنّ من يرتكب أية جريمة من هؤلاء لابدّ أن تكون عقوبته أشدّ، متى ما كان من الطبقة العليا. وكانت أجو

الاطباء متفاوتة بحسب طبقة المريض. ويقف في أدنى السلم الارقاء الذين لهم الحق في أن يدخروا أو أن يكون في حوزتهم الاموال، ومن حقهم أن يشتروا حريتهم. وحالتهم كانت أساساً كانت تقتضي، كحالة الرقيق في سائر أنحاء العالم القديم، التقدم نحو حياةٍ أفضل[1].

ولعل الحقيقة الحضارية التي تميز حضارة وادي الرافدين قديماً، والتي مثلها السمو الحضاري في بابل بالذات، هي تصور العالم بأسره مزرعة كبيرة توفر الضروريات للإنسان وتحفظ له حياته في أوقات الكوارث والحروب والازمات. فمن هو مالك أو حامي هذه المزرعة الذي يحفظ حدودها ويتابع إنتاجها ويوزع خيراتها ويجازي أو يعاقب! إنّه الإله الاعظم المتمثل بأنليل السومري ومردوك البابلي أو الإله شمش (الشمس) الذي أخذه الاشوريون عن سومر وبابل. ولهذا الإله معبد (Temple) وهو هيكل يمثل الكون (وظيفة دينية) وهو مركز للحكم (وظيفة سياسية) وهو مخزن للغلال يضم الفائض من الناتج الزراعي وما يضاف إليه من هدايا الملوك ونذور الرعية (وظيفة اقتصادية)، والإله في العراق القديم لا يمثل شخصية غيبية غريبة عن الوسط الإنساني ومجتمع بني البشر بل على العكس، له زوجة وأولاد يجب أن تتوفر لهم جرايات معينة تؤمن لهم الطعام والسلع. أي إنّه يعامل كرب أسرة أكبر، ويتناوب الملك في العراق القديم مع الإلهة المكانة الدينية والاجتماعية، وإن كان الملك ينفرد في وظيفته السياسية كحاكم. الا إنّ صلته بالإله الاعظم لم تنقطع. فحمورابي الذي يعد من أهم وأقوى ملوك بابل فهو الذي وحد بلاده وقضى على أعدائه وازدهرت في عهده بابل ثبّت في مسلته الخاصة بشريعته، الموقف العبادي والتوقيري لـ اله الشمس واله بابل (مردوك) الذي يسلمه ألواح شريعته (Code of Laws).

لذا فقد تداخل المجتمع السياسي (مجتمع السلطة والحكم المتمثل بالملك وأتباعه وموظفيه) والمجتمع الاجتماعي (بمكونته الاساسية الاسرة والادوار المتقاسمة بين أعضائها) في الوقت الذي يوازن بين هذين المجتمعين: المجتمع الديني، يضم الإله

---

[1] المصدر نفسه، ص 91- 92.

الاكبر والإلهة الاصغر منه الذين يتوزعون على البقعة الجغرافية للدولة بأسرها، ثم الكهنة والمجتمع السياسي الذي يضم الملك وموظفيه وعماله.

وبذلك جمع المجتمع العراقي القديم بين الإلهة (الدين) والملك أو الحاكم (السياسة) والمجتمع (الاسرة). لذا فقد اعتمد المجتمع العراقي القديم على اله وملك ومواطن. هؤلاء الثلاثة يتواجدون في المدينة التي يمثل الهيكل أو المعبد نواتها الاساسية. كان المركز من دولة المدينة هو المدينة وكان المركز من المدينة نفسها هو هيكل اله المدينة. وكان هذا الهيكل عادةً أكبر مالك في الدولة يستغل أملاكه الشاسعة بإستخدام الارقاء والفلاحين. وكانت هناك هياكل أخرى تنتمي إلى زوجة إله المدينة وأولادهما وبعض الإلهة الصغار المقترنين بالإله الرئيسي ولكل منهم أرض فسيحة. فتقديرنا الان هو إنّ معظم أراضي دولة المدينة، عند منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، كانت تعود إلى الهياكل. وهكذا فإنّ السواد من السكان كانوا يكسبون رزقهم كفلاحين أو أرقاء أو خدم لدى الإلهة. هذا هو الوضع الذي تتمثل فيه الاوضاع الاقتصادية والسياسية التي تعبر عنها أساطير ما بين النهرين، القائلة بإنّ الإنسان خلق ليريح الإلهة من الكدح والعناء والعمل في مزارع الإلهة. لإنّ دولة المدينة لم تكن الا مزرعة كبيرة، أو هي كمزارع القرون الوسطى التي يمكن أن تقارن بها - منظمة أساسها المزرعة الكبيرة - وهذه المزرعة الاساسية تتكون من الهيكل الاكبر وأراضيه، يملكها ويدير شؤونها، إله المدينة الذي تصدر عنه الاوامر المهمة[1]. ولكن ما هو دور الملك أو الحاكم في العراق القديم؟ إنّ دور الملك أو الحاكم في العراق القديم والذي يحكم مدينة لوحدها أو يمتد نفوذه ليشمل عدة مدن تكوّن دولة قومية. إذ يعمل، وبفعل قوته، على توحيد العديد من المدن تحت سطوته محققاً الدولة القومية وكما يلي«تقسم وظائف الملك إلى شقين: محاسبة المذنبين والمحافظة على الشريعة والنظام الداخلي، وقيادة الحروب وحماية ما بين النهرين من الخارج... يؤكد ذلك حمورابي قائلاً: أنا حمورابي الامر المطيع، الخائف من الله، أعمل لإقامة العدل في البلاد وتحطيم الاشرار والفاسدين، لكي لا

---

[1] فرانكفورت ه.، فرانكفورت ه .1.، وجون أولسن وجاكسون، ماقبل الفلسفة، ص 221.

يؤذي القوي الضعيف، وأطلع أنا كالثمر فوق الاناس، السود الرؤوس، وأنير البلاد» [1].

ونظراً لما تتطلبه حياة الزراعة وعلى رقعة متسعة من الارض، كأرض بلاد الرافدين، وتطور الزراعة في تلك الحقبة التاريخية الموغلة في القدم. لكي تكون (الزراعة) المصدر لملء ميزانية الدولة ومدنها وتمويل آلتها الحربية والحفاظ على هيبة الملك وإعلاء اسم الحاكم لدى مواطنيه. لهذا لعبت الشرائع والقوانين دوراً متميزاً في ضبط العلاقات الاجتماعية في العراق القديم وكانت أحد أهم نواتج الفكر الاجتماعي في تلك الفترة الحضارية.

وقد مثل احترام القانون والالتزام به أحد أهم المظاهر الحضارية في العراق القديم وبابل بالذات، حتى إنّ الملك كان نفسه يعمل ضمن الصيغ القانونية. كما إنّ هذه الصيغ كانت تنظم حياة الكهنة والهيكل وترتب المراكز الوظيفية وتؤشر توصيفاتها. ونظراً لتكامل التشريع العراقي القديم وتطور الصيغ القانونية، فقد أخذت مواد القانون تلعب دوراً كبيراً في تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية وبذلك حلّت محل العقوبات والإجراءات التي كان يمارسها الإلهة عن طريق هياكلها وكهنتها. أي إنّ العراق القديم شهد أول قانون وضعي في تاريخ المجتمع الإنساني، حيث استبدلت العقوبات المدنية ذات الاساس الديني بعقوبات مدنية أساسها العقاب البدني أو الغرامات المالية. وكان القضاة الاولون من الكهنة وظلت الهياكل مقر معظم المحاكم إلى آخر تاريخ البابليين. ولكنّ المحاكم غير دينية تسأل عن أحكامها الا أمام الحكومة. وكانت هذه المحاكم قد أخذت، منذ أيام حمورابي نفسه، تحل محل المراكز القضائية التي كان يرأسها الكهنة [2].

لقد كانت الدولة في بابل فاعلة إلى الحد الذي استطاعت فيه أن تنظم الحياة العامة قانونياً، ليس في مجال الحد من نشر الجريمة ونشر العدالة المنظمة قانونياً فحسب، بل ومن خلال وضع القانون في خدمة المجتمع وحركته اليومية داخل الاسرة وفي السوق وأثناء التعامل والانتقال والزواج. فإذا ضرب رجل أباه جـ

---

[1] المصدر نفسه، ص 228.

[2] ... ص 208.

بقطع يده. وإذا تسبب طبيب أثناء جراحة في موت مريض أو في فقد عين من عينيه قطعت أصابع الطبيب. وإذا استبدلت قابلة طفلاً بآخر عن علم بفعلتها قطع ثدياها. وكانت جرائم كثيرة أخرى يعاقب عليها بالموت، منها هتك الاعراض وخطف الاطفال وقطع الطرق والسطو والفسق بالاهل وتسبب المرأة في قتل زوجها لتتزوج بغيره ودخول كاهنة خمارة أو فتحها إياها أو إيواء عبد أو الجبن في ميدان القتال أو سوء استعمال الوظيفة أو إهمال الزوجة شؤون بيتها أو سوء تدبيرها وغش الخمور. بهذه الوسائل التي ظلّ معمولاً بها الاف السنين استقرت التقاليد والعادات التي أدت إلى حفظ النظام وضبط النفس والتي أضحت فيما بعد من غير قصد، جزءاً من الاسس التي قامت عليها الحضارة[1].

وبالرغم من تشابه الوسط الجغرافي المصري القديم مع الوسط الجغرافي في العراق القديم، حيث يلعب الماء ممثلاً بالنيل والخصب والصحراء الادوار الرئيسة المؤثرة في حياة الإنسان المصري، غير إنّ تركز المصدر المائي للحضارة المصرية القديمة بنهر واحد ينبع من أوساط قارة مجهولة ليصب في بحر عظيم، قاطعاً أرضاً شاسعة في مجراه شحيحاً في جفافه مدمراً في فيضانه سخياً في منحه بخيلاً في منعه، يغمر الضفاف إذا طغا مكوناً مساحات واسعة من القصب والبردي ومستنقعات لا يحدّها الا طرف الصحراء الذي يحف بالنيل من الجانبين تاركاً شريطاً من الارض المزروعة الذي عاش عليها الاف البشر منذ فجر التاريخ وحتى الوقت الحاضر، إنّ هذا التركيز، كرس الحقيقة التاريخية القائلة بإنّ مصر منارة الله وشجرة الكثرة الكاثرة من الناس. « مصر هبة النيل وليس للنيل شبيه في هذه الدنيا. حوضه الاعلى يمتد امتداداً عظيماً حتى يلتقي نهر عطبرة به فيما يلي مدينة الخرطوم، كما إنّ المنحنى العظيم الذي يشبه السين الاوربية لمجرى النيل والذي يحمل مياهه العظيمة في بلاد النوبة من بربر إلى أسوان لا يؤثر في مصر الا نادراً ومن خارج حدودها. ولكنّ ما يؤديه النيل لمصر وهو يشق طريقه في الاخدود الذي أصاب القارة الافريقية الصلبة يختلف عما يفعله وهو يمر في سهول من الغرين جلبها النيل نفسه عند أحد شواطئ البحر المتوسط. ومع هذا قامت مصر

---

[1] ديورانت، ص 209.

ولا تزال تتكون من إقليمين متميزين يختلف أحدهما عن الاخر: مصر العليا ومصر السفلى أو الوادي ودلتا النيل» [1].

هذه التكوينة الطبيعية الجغرافية لأرض مصر أشرت البدايات الاولى للفكر المصري الذي تأثر بالقارة الافريقية (مصر العليا أو الوادي) كما تأثر بالبحر الابيض المتوسط (مصر السفلى أو دلتا النيل) ويكاد شرق الدلتا أن يكون عديم الدفاع كغربها. وفيما يلي البحيرات الضحلة التي تمتد إلى الداخل من حدود الارض المنخفضة حتى رأس البحر الاحمر، حيث توجد أرض صلبة صالحة لأن تكون جسراً موصلاً إلى آسيا عبر صحراء التيه شمالي سيناء، وهي صورة مطابقة لليبيا في مناظرها الطبيعية، من شاطئ مجدب وبحيرات ضحلة أكثر عدداً وسهول طينية كما جرى ذكرها في المثل السائر (المستنقعات السوبونية). ويلي هذه تلال رملية وأرض مراع تمتد حتى أرض فلسطين المنخفضة وهي أفضل ريّاً فيما دون التلال التي في الارض. ويوجد في الداخل هضبة قاحلة يزيد ارتفاعها كلما اتجهنا إلى الجنوب كما يزيد جدبها حتى تنتهي إلى الطبقات الكرانيتية والمعدنية في سيناء وهي صورة مصغرة لجزيرة العرب بين خليجي البحر الاحمر. ورغم إنّ هذه المواقع تجعل مصر في معزل عن غيرها الا إنّها في الواقع غير كافية لتوقف أي غزو من آسيا أو هجرة القبائل التي تنزح إليها كلما سمعت إنّ في مصر غلالا وافرة. ومع هذا فقد كان هناك على الدوام طريق واحد على الاقل للقوافل يعبر صحراء التيه من العقبة إلى السويس ومنها طريق محاذ للقناة العذبة إلى رأس الدلتا وطريق آخر يسلكه (أهل فلسطين) ماراً بشاطئ البحر المتوسط [2]. هذه الطبوغرافية الارضية عملت كدافع مؤثر في تشكيل القاعدة الاساس لعمل وفكر وسلوك الإنسان المصري على مر تاريخه القديم والوسيط والحديث والمعاصر. لقد كانت التأثيرات المتوسطية (البحر الابيض المتوسط) وتأثيرات الجزيرة العربية مضافاً إليها التأثير الافريقي عوامل تركت بصماتها واضحة على الفكر المصري القديم.

---

[1] مايرز، ص 46.

[2] المصدر نفسه، ص 47- 48.

لقد كانت الحياة قاسية في غرب الدلتا وشرقهاَ حيث تندر الزراعة. لذا فإنّ التجارة هي التي كانت سائدة، ومع التجارة التي لم تتمتع بحركة منظمة بسبب الوضع الجغرافي والسكاني لهذه المناطق كان يتم انتقال الاشخاص والافكار والسلع التي ساهمت في بناء الفلسفات والتصورات الدينية المبكرة. أمدت المعرفة الزراعية الافريقية مصر بالعديد من أدواتها الزراعية وبذلك تلاقحت كل هذه المؤثرات المتوسطية، ومن الجزيرة العربية ومن أفريقيا، لتبرز إحدى أهم الحضارات الإنسانية في مصر الوسطى والجنوبية التي تمتد من رأس الدلتا وحتى قلب الوادي ونهايته. فإذا جاوزنا القاهرة جنوباً عند رأس الدلتا فنحن في مصر العليا. في الارض السعيدة كما يسميها العرب، والتي كإنّها عقد من الزمرد في شق عميق يخترق سطح أفريقيا الذي يتكون هنا من صحراء ذات سطح مستوي قاحل يتراوح ارتفاعه من ألف إلى ألف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر. وقلما يسقط المطر جنوب الدلتا. والبلاد كلها قاحلة الا شريطاً في الواحات التي هي في منخفضات منعزلة في غرب هذا الشق أو بعض النتوءات التي تبرز فوق حافته الغربية. وتتراوح سعة الشق بين عشرة أميال وخمسة عشر ميلاً إلى مدى ثلثمائة ميل جنوب القاهرة... ولما كانت كل هذه المنطقة التي يبلغ طولها ستمائة ميل عديمة المطر، في الواقع ويزيد من جفافها هبوب الرياح الشمالية الجافة عليها، الزراعة فيها مقصورة على الشريط الضيق الذي تصل إليه مياه الفيضان في فصل الصيف. ويبلغ ارتفاع منسوبها ستاً وعشرين قدماً في أسوان وثلاثاً وعشرين قدماً في القاهرة. ونظراً إلىٰ إنّ أرض الوادي ذاتها من الطمى الذي جلبه النيل فهي تكاد تكون كلها مستوية ويترتب على استوائها إنّ أقل تغيير في ارتفاع الفيضان يؤدي إلى تغيير كبير فيما يصيب البلاد من خصب. وحول مثل هذه البلاد، حيث الحياة عادةً سهلة لينة يتجدد السؤال كل عام عن منسوب الفيضان وهل من المستطاع الإجابة عنه. ولكن نظراً إلى إنّ مياه الفيضان تعتمد اعتماداً كلياً على الامطار الصيفية الغزيرة التي على جبال الحبشة البعيدة فليس في مقدور العقل البشري ولا في امكان أي انسان أن يبتدع ما يعين على الإجابة عن هذا السؤال. وليس في المستطاع سوى تنظيم توزيع ما يرد من المياه بالغةً ما بلغت، لمنعها من أن تنساب

سدى في البحر والحصول على قدر من المحصولات أكثر من المتوسط السنوي جراء ما يبذل في سبيل ذلك من الجهد المرهق في الشادوف بدلوه وعتلته[1].

في ظل هذه الظروف الصعبة وفي مثل هذا الوسط المحدود الخبرات نشأت الحضارة المصرية القديمة التي كان قوامها فكراً أثرت فيه هذه الصعوبات وصقله ذلك الكم الهائل من المعاناة وحينئذٍ شكلت كلها دوافع شحذ لواحدة من أقدم وأهم حضارات الإنسان التي عالجت قضايا الغيب والحكم والمجتمع.